البـــاب الاول

القســـم الاول

تطـــور اللغـــة وخصائصهـــا

الفصـــل الاول :

أ ــ التطـــور اللغـــوى :

تبدو اللغة العربية التى نـــزل بهـــا القـــرآن وروى بها الشـعر القديم . ودونت فى المعاجم اللغوية ؛ وكأنها قد ظهرت الى الوجود فجأة ، تامة التكوين ، ناضجة الاساليب . مما دفع عددا من اللغويين القدماء الى أن يتصورها لغة مقدسة هبط بها الوحى ، او تجلى بها الالهام على قلوب اصحابها (1) كما دفـــع ذلك احد المستشرقين المحدثين ؛ وهـــو المستشرق الالمانى (فولرز Vollers) الى القول بأن اللغـــة العربية الفصحى لغة صناعية ، ولم تكن يوما من الايام لغة كلام ومخاطبة (3) .

لكن الدراسات الحديثة قد استطاعت ان تصل هذه اللغة التى لم يكن يعرف لها تاريخ ابعد من قرنين من الزمان قبل نزول القرآن ــ الى ما قبل عام ــ 2500 ق . م اى ما قبل الاسلام بأكثر من 3000 سنـــة ، وهـــذا التـــاريخ ، هو تاريخ اقدم نص اكدى ، والاكدية احدى اللغات الميتة التـــى كشفت عنها وعن غيرها البحوث الاثرية فى منطقة الشرق الادنى والتى عكف الباحثون على دراستها ، وتبين لهـــم فى اللغات الســامية وجود خصائص مشتركة بين بعضها البعض ، وبينها وبين بعض اللغات الحية كالعربية والعبرية والحبشية مما دفعهم الى افتـــراض اصـــل مشترك بين هذه اللغات جميعا سموه اللغة الســامية الام ، واطلقوا على مجموعة اللغات التى تشترك فيه اسم اسرة اللغات الســامية وهى تضم العربيـــة والاكادية والكنعانية والحبشية والآرامية . وتشتمل اللغة الكنعانية على اللغات الاوغاريتيـــة والعبريـــة والفينيقية ، وتسمى اللغة الفينيقية فى امتدادها الافريقى اللغة البونية ، كما تشتمل اللغة الآرامية على اللهجتين السريانية والنبطية ، وتشتمل اللغـــة العربيـــة على العربية الجنوبية (لغة اليمن) والعربية الشماليـــة (لغة الحجاز ونجد) (3) .

---

(1) المزهر للسيوطى ج 1 ص 30 : 35 فقه اللغة لابن فارس ص 5 ــ 6 .

(2) بنرك فلزر K. Vollers فى كتابه :
Volkssrache und schript
Sprachelmelten Arabien ; Strassburg ; 1905

(3) اللغة العربية عبر القرون ص 16 ــ 23 . انظر العربية ليوهان فك ، ترجمة محمد عبد الحليم النجار ، وانظر اللغات السامية لفؤاد حسنين .

ومعنى هذا ان اللغة العربية ظلت لغة حية تنمو وتتطور على طول ما يزيد كثيرا على 3000 آلاف سنة محتفظة فى رحلتها الطويلة هذه بأقدم خصائصها اللغوية مما جعل اللغويين ينظرون اليها اليوم على انها اقدم اللغات السامية ، واقربها الى اللغة السامية الام (4) ·

و « يعرف الباحثون اليوم عددا من الالفاظ المشتركة فى كل اللغات السامية نجدها فى العربية والاكاديمية واللغات الكنعانية والآرامية بجانب العربية الجنوبية والحبشية وكان هذه الكلمات هى المعجم الاساسى البسيط الذى كان يستخدمه الساميون القدماء والذى ورثته كل لغة من اللغات السامية عن اللغة الام · يضم هذا المعجم الاساسى الالفاظ الدالة على اعضاء الاسرة فكلمات الاب والام والاخ والاخت والعم كلمات مشتركة فى كل هذه اللغات والكلمات الخاصة بأعضاء جسم الانسان مثل العين والانف والرجل والشعر واليد والاذن والراس الفاظ نجدها مشاعا فى كل اللغات السامية وهذه الالفاظ دون شك هى ميراث قديم عند ما حاولت هذه الجماعات من البشر أن تسمى علاقات الاسرة وان ينظر كل واحد الى اعضاء جسده · وهناك عدد آخر من الكلمات المشتركة الموروثة فى اللغة السامية الام تعبر عن اسماء بعض الحيوانات منها ليث وكلب وعجل ، هذا وقد عرفت بيئة الساميين الاوائل نوعا من الزراعة ، الامر الذى جعل بعض الكلمات الزراعية من المعجم الاساسى المشترك فى كل اللغات السامية وهذه مثل كمون ، سنبلة ، قمح ، ثوم ، وبجانب هذا وذاك فالاعداد شىء مشترك فى هذه اللغات ونعنى بها الاعداد من 1 : 1000 فالساميون القدماء لم يعرفوا كلمة للمليون بل قال العرب مثلا الف الف · اما فى محيط الافعال فهناك أفعال كثيرة مشتركة فى اللغات السامية مثل : ملك .. قتل ، كتب ، هذه الالفاظ اذن من اقدم الالفاظ فى العربية واذا نظرنا الى النقوش الاكادية المؤرخة فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وجدنا فيا هذه الكلمات ، هاجر بها الاكاديون قبل هذا التاريخ من مهد الساميين الى أرض الرافدين· معنى هذا ان عمر هذه الالفاظ اكثر من خمسة واربعين قرنا » (5) ·

وتكشف لنا هذه المجموعة من الالفاظ على قلتها عن شىء بالغ الدلالة بالنسبة للشعوب التى يطلق عليها الشعوب السامية بما فيها الشعب العربى ، وهو أن هذه الشعوب قد جاوزت طور المرحلة البدائية منذ هذا التاريخ البعيد الذى يرجع الى ما قبل الميلاد بأكثر من 2500 سنة « ففى الامم البدائية الضعيفة التفكير ، المنحطة المدارك تغزر الكلمات الدالة على المحسات والامور الجزئية ، وتنعدم او تقل الالفاظ الدالة على المعانى الكلية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط فيكثر فيها الخلط واللبس والابهام وتخلوا القواعد أو تكاد تخلو من ظواهر التحريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة ، والعبارة بعضها ببعض ، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لاكثر من ضروريات الحياة وفى كثير من الامم البدائية ينعكس فى اللغة من مظاهر الاضطراب والابهام ما تمتاز به عقليات الناطقين بها من سذاجة وتصور ، حتى انها لا تكاد وحدها تبين عن معنى واضح دقيق ، وحتى ان اهلها انفسهم ليضطرون فى اثناء حديثهم الى الاستعانة بالحركات اليدوية والجسمية لتكملة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة · فقد روى عن قبائل (البوشيمان Bochiman) عشائر بدائية تسكن جنوب افريقية) انهم اذا ارادوا المحادثة ليلا يضطرون الى اشعال النار ليتمكنوا من رؤية الاشارات اليدوية والجسمية التى تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتوضح مدلولاته (6) ويقرر علماء الاثنوجرافيا الذين عنوا بدراسة السكان الاصليين بأمريكا واستراليا وافريقية ان عقليات هذه الشعوب لا تكاد تدرك المعانى الكلية فى كثير من مظاهرها ، وان هذا القصور العقلى كان له صدى كبير فى لغاتهم فلا نكاد نجد فى كثير منها لفظا يدل على معنى كلى · ففى لغة الهنود الحمر مثلا لا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لا يوجد اى لفظ للدلالة على الشجرة على

---

(4) نفس المصدر ص 20 ·
(5) اللغة العربية عبر القرون 24 — 25 ·
(6) Rilot : L'Evolution desldéas, P 78

العموم · وفى لغة الهورولين Hurons) من السكان الاصليين لامريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ، ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه ، فيوجد لفظ للتعبير عن الاكل فى حالة تعلقه بالخبز ولفظ آخر للتعبير عنه فى حالة تعلقه باللحم ، وثالث فى حالة تعلقه بالزبد ، ورابع فى حالةتعلقه بالموز . . وهكذا ، ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الاكل على العموم او الاكل فى زمن ما (7) · ولغة السكان الاصليين لجزيرة نسماينا (بقرب استراليا) لا يوجد بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة فاذا ارادوا وصف شيء لجأوا الى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة فيقولون مثلا : « فلان كشجرة كذا » اذا ارادوا وصفه بالطول (8) . . « فهو » (9) الظواهر التى تلاحظ فى اللغات البدائية قد اختفت منذ هذا العهد السحيق ، فظهور الاسماء الكلية بالنسبة لاسماء بعض الحيوانات او بعض النباتات او بعض الافعال وكذلك ظهور الاعداد من 1 : 1000 يعنى ان اللغة قد دخلت فعلا فى مرحلة حضارية · كما ان ظهور فعل كتب بالذات له دلالته التى لا تخفى على تقدم هذه المرحلة ·

على أن ذلك لا يعنى ان الدراسات السامية الحديثة قد استطاعت ان تزيح الغموض الشديد الذى يلف تاريخ تطور اللغة العربية حتى تاريخ ازدهارها فى القرنين السابقين على الاسلام · وذلك لان هذه اللغة لم تتطور وتنم عن طريق الكتابة او على ايدى المدرسين · وانما نمت وتطورت حتى ازدهارها فوق الرمال المتحركة عن طريق الحفظ والتلقين ، والتدريب الاجتماعى جيلا بعد جيل ، مما جعلهم يعتزون بالرواية الشفهية الى ابعد الحدود حيث انها كانت الوسيلة الوحيدة لحفظ تراثهم وتاريخهم ولغتهم وحضارتهم ، وحتى راينا هذا الحب يترك اثره الواضح حتى بعد انتشار الكتابة وعصر التدوين مما جعل سلسلة الاسناد بالرواية الشفهية يدخل فى امهات الكتب المدونة فى مختلف فروع العلوم ، وحتى راينا العلماء ولا يجيزون مع الرواية الشفهية اذا صح اسنادها ، الرواية من صحيفة مكتوبة ، ولا الرواية عن صحفى يعتمد على الصحف المكتوبة (10) ·

على ان هذا التاريخ الغامض الشديد الغموض قد ترك لنا بعضا من الآثار التى يمكن أن تلقى الضوء على هذا التطور فى بعض مراحله وهذه الآثار هى :

1 ــ النقــوش :

كشفت لنا جهود الباحثين فى المائة عام الماضية عددا كبيرا من النقوش العربية الشمالية المبكرة ، وصلتنا فى الفترة الزمنية بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الرابع الميلادى ، وليست هذه النقوش هى اقدم شيء وصلنا بالعربية ، فقد ذكرت النقوش الاكادية التى دونت فى العراق القديم عددا من اسماء الاعلام العربية ، وقد قام بعض الباحثين بدراسة هذه الاسماء واثبتوا انها أعلام عربية ، ويبدو ان هذه النقوش قد دونت بين 553 ــ 626 ق · م ولكن هذه الاسماء لقلتها لا تقدم لنا معلومات مجدية عن طبيعة اللغة العربية فى تلك الفترة ·

اما النقوش الثمودية والصفرية واللحيانية فتعتبر من اهم مصادرنا للتعرف على المرحلة المبكرة فى تاريخ العربية ، وقد وجدت هذه النقوش فى اماكن كثيرة من المنطقة شبه الرعوية بين صحراء الجزيرة العربية والمناطق الزراعية فى الشام والعراق وكذلك فى شبه جزيرة سيناء ، وتختلف هذه النقوش من ناحية جودة الكتابة ووضوحها ، فبعضها كتب بعناية ودقة واهتمام والبعض الآخر كتبه أفراد بسطاء دون اهتمام بالرونق والجمال ويطلق على النوع الاخير اسم الجرافيتى او المخربشات · وكل هذه النقوش مدونة بخط يشبه الى حد ما الخط المسند الذى عرفته الصحف فى عصورنا القديمة ، ويختلف شكل الخط المسند عن الخط العربى الشمالى اختلافا اساسيا ، ولكن هذا وذاك يشتركان فى خاصية واحدة فقد عنوا بالاصوات الساكنة دون حركات قصيرة فنحن نكتب الكاف والتاء والباء للتعبير عن كتب وكتب وكتب . . الخ · وشبيه

(7) Rilot... ; P 110
(8) Rilot... ; P 204
(9) اللغة والمجتمع ، عبد الواحد ص 14 : 17 ·
(10) طبقات ابن سلام ص 6 ·

بهذا ما عرفناه فى هذه النقوش فهى كتابة لا تعير الحركات القصيرة حظها من الاهتمام ، ومن ثم كان استخراج الظواهر اللغوية من هذا الهيكل الكتابى صعبا فى بعض الظواهر مستحيلا فى بعض الظواهر الاخرى ·

تعرف النقوش الثمودية عددا كبيرا من الظواهر التى نعرفها فى العربية ، ففيها وفرة من الافعال التى نعرفها فى العربية حق المعرفة مثل : علم حل بات رعى رهب بان كتم رد عشق ، وتعرف النقوش الفعل بوزن فاعل مثل : ساعد وبوزن افعل مثل ابتر ، وتعرف النقوش الثمودية كذلك عددا من حروف الجر مثل الى والباء وفى ومن واللام ، وعددا آخر من المفردات الشائعة فى العربية مثل جمل فاتة فرس وعل فلان فلانة آل اسير اسد ذكر حزم ظلم نصر · نقم سلامة سعادة ، وهناك عدد من اسماء الاعلام العربية وردت فى النقوش الثمودية مثل احمد وبدر ووائل وزيد وحليم وطاهرة وظريف وكلب ولبيد ومطر ومكين وحضر ومروان ونوفل وضيف وامين وشهر ، فكل هذه الظواهر والكلمات التى نعرفها اليوم وردت فى النقوش الثمودية التى يؤرخها معظم الباحثين من القرن الرابع او الثالث قبل الميلاد والى القرن الثالث الميلادى ، وهكذا نجد أن عمر كثير من الظواهر فى العربية يرجع على اقرب تقدير الى هذه الفترة ·

اما النقوش الصفرية ففيها ظواهر كثيرة تجعل الباحثين يقررون انها تمثل لهجة عربية شمالية فنجد فيها الافعال : ندم وتشوق ولعن ونهل وسمع وعور وقتل ورعى ، ومن الاسماء الشائعة فيها : فرس حنان ضال خيل خال خمسة كبير ملك معزى سطر عشيرة ضيف رواح قبر ضريح · وبجانب هذا يوجد عدد كبير من اسماء الاعلام العربية ترد فى هذه النقوش مثل اذنيه جمال همام وهب ورد حبيب سالم سميع سرى سعد غانم فهر صباح تيم معن ..

اما المجموعة الثالثة من النقوش فهى النقوش اللحيانية ، وهذه النقوش تعرفنا كثيرا من الخصائص التى تجعل الباحثين يدرجونها فى اللهجات العربية المبكرة ولنقرأ فيها الاسماء الآتية : عبد ، رب ، يوم ، بيت ، راى ، عرض ، نعم ، ملك ، صام ، مراة ، شيمة ، حرة ، غلام ، وهذه الالفاظ مما نعرفه فى العربية ·

وهناك أوجه خلاف بينها وبين العربية التى نعرفها فوزن هفعل يستخدم فى اللحيانة ضمن اوزان التعدية ونحن نعلم ان العربية تعرف مقابل هذا وزن افعل مثل اذهب اكرم ، اما وزن هفعل فنجده فى النقوش اللحيانية فى الفعل همتع اى متع بالصحة ، وهذا الوزن غريب عن العربية · وفوق هذا فاداة التعريف فى النقوش اللحيانية هى الهاء على نفس النحو الذى نعرفه فى اللغة العبرية ، هذا ولم تكن الجماعات السامية القديمة فيما يبدو تستخدم اداة للتعريف فطورت كل لغة سامية وسائلها الخاصة بها للتعريف فال فى العربية تقابل الهاء فى العبرية · اما الآرامية فعرفت الفتحة فى آخر الاسم وسيلة لتعريفه ·

وفوق هذا وذاك فكل النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية تشترك فى عدد من الخصائص اللغوية الاساسية التى تاخذها من كتاب اتهم بامكانياتها التعبيرية المحدودة مما يجعلنا نقول انها من اللهجات العربية المبكرة · غير ان اللهجات لا تمثل العربية الفصحى المتطورة التى وصلتنا فى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم · فهناك فرق بين وجود بعض الظواهر اللغوية الصرفية او المعجمية المشتركة وبين كون هذه النقوش مرحلة فى طريق التطور الطويل الذى عرفته العربية من العهد السامى القديم قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وحتى وصلت فى الشعر الجاهلى الى مستوى رفيع ·

وليس الثموديون والصفويون واللحيانيون وحدهم هم اصحاب النقوش التى وجدناها فى صحراء الشام والعراق ، فالنبط ايضا شعب عربى ونعرف هذا من اسماء الاعلام عندهم ولكنهم لم يكتبوا بالعربية وكتبوا بالآرمية وهى لغة الحياة الدولية آنذاك ، ولكن للنبط اهمية كبرى فى تاريخ العربية وخطوطها فالنبط هم من علموا العرب كيف يكتبون ، والخط النبطى هو صورة متطورة عن الخط الآرامى وهو أساس الخط العربى وقد استطاع الباحثون فى تاريخ الكتابة تتبع المراحل التى تطورت بالخط عبر النبط حتى وصل الى الصورة التى نعرفها فى أقدم النقوش المدونة بالخط العربى الشمالى واقدم هذه النقوش المدونة بالخط

العربى نقش زيد المؤرخ سنة 512 م ، ونقش حوران سنة 568 م ، ونقش أم الجمال الذى يؤرخ ايضا بالقرن السادس الميلادى اى أنها من تاريخ متاخر نسبيا اذا قورنت بالنقوش التى وصلتنا باللغات السامية الاخرى.

فأهمية النبط فى هذا المقام ترجع الى دورهم فى تطور الكتابة وتعليمها لغيرهم من العرب ، ان النقوش الثمودية والصفوية واللحيانية تفيد فى دراسة العربية، ولكن لغة الشعر الجاهلى والقرآن الكريم لا تعتبر الامتداد المباشر للغة هذ النقوش ان هـذه اللغـة العربية قد وصلتنا فى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم فى صورة مصقولة متبلورة » (11) .

2 ــ اللهجـات :

تعد اللهجات ميدانا هاما جدا اذا نظر اليه فى ضوء اللغة الثقافية التى روى بها الشعر القديم ونزل بها القرآن الكريم . أما الشعر القديم فقد روى بلغـة موحدة لا اثر فيها للهجات القبائل الخاصة التى ينتسب اليها الشعراء « ونحن حين نستعرض شعراء ربيعة تلك القبيلة التى عرفت بالكشكشة لا نكاد نلمح اثرا لتلك الصفة فى شعر شعرائها ، ورواية شعر فيـه كشكشة بشعر خال منها تأباه بعض الاوزان الشعرية.

بل حين نرجع الى ديوان الهذليين لنستشف منه الصفات التى عرفت بها لهجة هذيل كالفحفحـة او تسهيل الهمز أو الاستنطاق ، لا نكاد نعثر على اثر لها فى اشعارهم . وكل الذى نراه فى الديوان ممـا ينسب الى هذيل وحدها لا يعدو ان يكون بضع كلمات قيل لنا انها بلفظها ومعناها قد اختصت بها هذيل : مثل ابل ضحضاح اى كثيرة ولا يعرف هذا غير هذيل والخبطة اى الوتد ، ومعناها فقط مثل : الطرف بمعنى الفتى. الكريم والخحش بمعنى الخشف وهناك كلمات وردت بالديوان فى صيغة مخالفة لما اشتهر عنها مثل سميح بمعنى سمح ونجد بمعنى نجد ، والسب بمعنى السبب اى الحبل . ويوصف كل هذا بانه لغة هذيل .

ويظهر أن شراح الديون حين كان يعييهم تفسير كلمة من الكلمات أو تبرير صيغتها كانوا يعمدون الى الى القول بانها لهجة هذيل : فليس ما ورد بالديوان مما يسمى بلغة هذيل الا نوعا من مماحكات المفسرين والشراح » (12) .

وأما بصدد القرآن فقد ظهر اختلاف اللهجات هذا اول ما ظهر فى القراءات القرآنية . روى عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : « دخلت المسجد اصلى . فدخل رجل فافتتح النمل ، فقرأ ، فخالفنى فى القراءة فلما انفتل قلت : من اقراك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم جاء رجل فقام يصلى فقرأ وافتتح النمل فخالفنى وخالف صاحبى ، فلما انفتل قلت : من اقراك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فدخل قلبى من الشك والتكذيب اشد مما كان فى الجاهلية ، فأخذت بأيديهما ، فانطلقت بها الى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : استقـرىء هذيـن ، فاستقرأ احدهما وقال : أحسنت فدخل قلبى من الشك والتكذيب اشد مما كان فى الجاهلية . ثم استقرأ الآخر وقال : أحسنت . فدخل صدرى من الشك والتكذيب اشد مما كان فى الجاهلية ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى بيده فقـال : اعيـذك بالله يا أبى من الشك ثم قال : ان جبريل عليه السـلام اتانى فقال : ان ربك عز وجل يأمرك ان تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : اللهم خفف من أمتى ، ثم عاد وقال : ان ربك عز وجل يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف » (النشر فى القـراءات العشر لابـن الجوزى) . ومن الواضح من هذا الحديث وغيره من الاحاديث أن العرب كانوا يستعملون فى حديثهم اليومى لهجات متعددة تختلف الى حد ما عن اللغة الفصحى التى روى بها الشعر ونزل بها القـرآن ، وان الرسول راعى اختلاف هذه اللهجات فى اقرائه القبائل للقرآن تيسيرا للقراءة عليهم حتى لا ينفروا وانه استأذن ربه فى هذا التيسير فأذن له .

اختـلاف اللهجـات :

وحين بدأ اللغويون فى تدوين اللغـة ، واخـذ النحويون فى تفعيل قواعدها لاحظوا فروقا بين لغة الشعر ولغة الحديث ثم بين لهجات الحديث المختلفة

(11) اللغة العربية عبر القرون ص 29 : 33
(12) فى اللهجات العربية انيس ص 43 : 44 .

سجلوا هذه الفروق ، فمنها ما نسبوه الى اهله ، ومنها ما اكتفوا بايراده ·

ويشتمل هذا الاختلاف على ظواهر صوتية ، ونحوية ولغوية تتعلق ببنية الكلمة ودلالتها والاشتراك والترادف وغيره من الظواهر اللغوية وسنعرض لهذه المسائل جميعا فى تركيز شديد ·

أ ــ الناحية الصوتية : من ظواهر الاختلاف الصوتية :

1) الفتح والامالة : اجمع علماء العربية على نسبة الفتح لاهل الحجاز وعلى نسبة الامالة الى قبائل نجد ، ولا نريد ان نتعرض لدراسة الفتح والامالة من الناحية الصوتية فهذا ليس موضوع بحثنا ، وانما نشير فقط الى نوع الاختلاف فأهل الحجاز ينطقون مثل : باع وقال بفتح الباء والمد بالالف بينما ينطقها اهل نجد بالامالة اما الى الكسر فيقولون بيع او الى الضم فيقولون بوع حسب اختلاف القبائل ·

2) الادغام وتسمى هذه الظاهرة عند المحدثين ASSIMILATION وهى تأتى نتيجة لتأثر الاصوات فى المخرج بعضها ببعض ·

وينقسم الادغام الى قسمين : كبير وهو الذى يفصل فيه بين الصوتين الساكنين صوت لين قصير (اى حركة) وقد نسب هذا الادغام الى ابى عمرو بن العلاء احد القراء السبعة · وهذا النوع من الادغام يتطلب عمليات صوتية معقدة قبل ان يتحقق فضلا عن انه ينسب الى قبيلة خاصة عرفت به وآثرته فى نقطها · صغير وهو الذى يتجاوز فيه الصوتان الساكنان ، دون فاصل اصوات العين (13) ويظهر ان القبائل التى اثرت فى البيئة العراقية بعد الاسلام تميل لهجاتها بوجه عام الى الادغام ، وان قبائل الحجاز كانت تميل الى الاظهار ، ويستانس لذلك بان تميما وهى من قبائل وسط الجزيرة كانت تقول : « محم » بدلا من « معهم » فقد قبلت العين المهجورة الى نظيرها المهموس وهو الحاء لمجاورتها لصوت مهموس وهو الهاء ، ثم ادغمت الهاء فى الحاء ادغاما تقدميا ، وروى عن تميم انها تقول « فزد » بدلا من « فزت » اى ان القاف المهموسة قد قلبت الى نظيرها المجهور وهو الدال ، وذلك لمجاورتها لصوت مجهور وهو الزاى (14) ·

3 ــ الهمز :

تكاد تجمع الروايات على ان قبيلة تميم تلتزم تحقيق الهمز فى حين ان قريشا تتخلص من الهمزة بحذفها او تسهيلها او قلبها الى حرف مد · فتقول : تميم : راس ، بئر ، لؤم ، وتقول قريش : راس ، بير ، لوم ·

4 ــ الكسر والضم :

والكسر هو لهجة الحجاز اى الضم فلهجة تميم يقول الحجازيون : اسوة ، سرية ، غلظة ، مدوة ، عشوة قدوة بكسر الاول يقول التميميون : اسوة ، سرية ، غلظة ، عدوة ، عشوة ، قدوة بضم الاول ·

5 ــ الشدة والرخاوة :

تميل القبائل البدوية الى الاصوات الشديدة فى نطقها على العكس من اهل المدن · فالباء والتاء والدال والكاف ، وغيرها من الاصوات الشديدة تميل فى نطقها على الترتيب الى الفاء والسين والزاى والشين ·

6 ــ جهر الاصوات وهمسها :

تميل القبائل البدوية الى جهر بعض الاصوات بينما تميل قبائل الحضر الى همسها مثال ذلك ان هذيلا تغلب فى لهجتها (الحاء عينا) فتقول : اللعم بدلا من اللحم ، والاعمر بدلا من الاحمر واعسن بدلا من احسن ، وقرا ابن مسعود فى هذه اللهجة (عتى عين) بدلا من (حتى حين) ·

7 ــ التضخيم والترقيق :

تميل القبائل بوجه عام الى اصوات التضخيم فى حين تميل القبائل الحضرية الى الترقيق ، ولذلك تظهر اصوات الاطباق وهى الصاد والظاء والضاد والطاء فى نطق القبائل الاولى بينما تميل الاخرى

---

(13) فى اللجنة العربية : انيس 20 : 71
(14) نفس المصدر 73 ·

الى التخلص منها فتقلب الصاد مثلا سينا فتقول سراط بدلا من صراط ·

8 ــ سرعــة النطــق :

تميل القبائل البدوية الى السرعــة فى نطقهــا فتدغم الاصوات بعضها فى بعض ، وتسقط منها مــا يمكن الاستغناء عنه دون اخلال بفهم السامع ·

لهجــات مشهــورة :

ترتب على هذه الاختلافات الصوتيــة وجــود لهجات اشتهرت نسبتها الى بعض القبائل منها :

« الكشكشة ، وهى فى ربيعة ومضر ، يجعلون بعد كاف الخطاب فى المؤنث شينا فيقولون : رايتكش ، وبكش ، وعليكش ، فمنهم من يثبتها فى حالة الوقف فقط ، وهو الاشهر ومنهم من يبقيها فى الوصل ايضا ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها فى الوصــل ويسكنها فى الوقف ، فيقول ، منش وعليش ·

ومنها : اللشكسة وهــى فى ربيعــة ومضر ، يجعلون بعد الكاف او مكانها فى الذكر سينا على مــا تقــدم ·

ومنها العنعنة وهى فى كثير من العرب فى لغة تيس وتميم ، تجعل الهمزة المبدوء بها عينا فيقولون فى انك عنك وفى اسلم عسلم ، وفى اذن عذن ومنها : الفحفحة فى لغة هذيل ، يجعلون الحاء عينا ·

ومنها : الوكم فى لغة ربيعة ، وهم قوم مــن كلب ، يقولون : عليكم ويكم ، وحيث كان قبل الكاف يــاء او كسرة ·

ومنها : الوهم فى لغة كلب ، يقولون : منهم وعنهم ، وبينهم ، وان لم يكن قبل الهاء ياء او كسرة·

ومنها : العجعجة فى لغة قضاعة ، يجعلون الياء المشدودة جيما يقولون فى تيسى تيج .

ومنها : الاستنطاء فى لغة سعد بن بكر ، وهذيل ، والازد ، وقيس ، والانصار ، تجعل العين الساكنة نونا اذا جاورت الطاء كانطى فى اعطى ·

ومنها : الوتم فى لغة اليمن ، تجعل السين تاء كالنات فى الناس ·

ومنها : الشنشنة فى لغة اليمن تجعل الكاف شينا مطلقا كلبيش اللهم لبيش اى لبيك ·

ومنها : اللخلخانية فى لغة اعراب الشحر وعمان كقولهم : مشا الله كان اى ما شاء الله كان ·

ومنها الطمطمانية فى لغة حمير كقولهم : طاب اسهواء : اى طاب الهواء » (15) ·

ب ــ الناحية الاعرابية والنحوية :

روى النحاة عدة مسائل اعرابية مختلف عليها وعللوا هذا الاختلاف بانه اختلاف لهجات من هــذه المسائــل :

1) ان ينصب الحجازيون خبر ليس مطلقا ، ولكن بنى تميم يرفعونه اذا اقترن (بالا) حمــلا لهــا علــى (مــا) ·

2) قسم النحلة (مــا) النافية الى حجازيــة وتميمية وقرروا ان خبر (ما) يكــون منصوبا عنــد الحجازيين ، ومرفوعا عند التميميين ·

3) ينصب الخبر بعد (ان) النافية فى لهجــة اهل العالية ، ويروى انه سمع من بعضهم (ان احد خيرا من احد الا بالعافية) ·

4) يصرف بنو اسد مالا ينصرف ، ويقع منهم ذلك فيما علة منعه الوصفية وزيادة الالف والنــون فيقولون (لست بسكران) ·

5) تنصب تميم تمييز (كم) الخبرية مفردا ، وغيرهم يوجب جره ، ويجيزون افراده وجمعه فبنو تميم يقولون كم درهما انفقت وغيرهم يقولون : كــم درهم انفقت ·

---

(15) المزهر للسيوطى ج 1 ص 221 : 223 ، وانظر فقه اللغة ، عبد الواحد ص 120 وانظر فقه اللغة لابن فارس ص 24 وما بعدها ·

6) تعمل (لعل) عمل الجر عند عقيل : قال شاعرهم : لعل الله فضلكم علينا .

7) تعمل (متى) عمل (من) الجارة عند هذيل ، قال شاعرهم :

شربن بماء البحر ثم ترفعت
متى لجج خضر لهن نئيج

8) نصب الاسم والخبر (بليت) لغة تميم او رؤية الذى هو من تميم .

9) مطابقة الفعل لفاعله فى الافراد والتثنية والجمع وهو من خصائص لهجة طىء وتسمى هذه اللغة (بلغة اكلونى البراغيث) .

جـ ــ اختلاف بنية الكلمة :

قال ابن فارس فى فقه اللغة : اختلاف لغات العرب من وجوه :

احدها : الاختلاف فى الحركات نحو نستعين ونستعين بفتح النون وكسرها ، قال الفراء : هى مفتوحة فى لغة قريش واسد وغيرهم يكسرها .

والوجه الآخر وهو الاختلاف فى الحركة والسكون نحو معكم ومعكم .

ووجه آخر : وهو الاختلاف فى ابدال الحروف ، نحو : اولئك واولائك ومنها قولهم : ان زيدا وعن زيدا .

وبعد ذلك : الاختلاف فى الهزة والتلبين نحو مستهزلون ومستهزون .

ومنها : الاختلاف فى التقديم والتاخير نحو صاعقة وصاقعة .

ومنها : الاختلاف فى الحذف والاثبات نحو استحييت واستحيت .

ومنها : الاختلاف فى الحرف الصحيح يبدل حرفا معتلا، نحو أما زيد ، وايما زيد .

ومنها : الاختلاف فى الامالة والتقويم مثل قضى ومدمى- فبعضهم يفخم وبعضهم يميل .

ومنها : الاختلاف فى الحرف الساكن يستقبله مثله . فمنهم من يكسر الاول ومنهم من يضم ، نحو : اشتروا الضلالة .

ومنها : الاختلاف فى التذكير والتانيث ، فان من العرب من يقول : هذه البقر ، وهذه النخل ، ومنهم من يقول : هذا البقر ، وهذا النخل .

ومنها : الاختلاف فى الادغام نحو : مهتدون ومهدون .

ومنها : الاختلاف فى الاعراب نحو : ما زيد قائما : وما زيد قائم ، وان هذين ، وان هذان .

ومنها : الاختلاف فى صور الجمع نحو : اسرى واسارى

ومنها : الاختلاف فى التحقيق والاختلاس نحو : يامركم ويامركم ، وعفى له وعفى له .

ومنها : الاختلاف فى الوقف على هاء التانيث مثل : هذه امه ، وهذه امت .

ومنها : الاختلاف فى الزيادة نحو : انظر ، وانظور (16)

د ــ اختلاف دلالة الكلمة .. التضاد :

وهو ان تدل الكلمة الواحدة على معنيين متناقضين ، وقد اختلف حول وضع العرب الكلمة الواحدة للمعنيين المتضادين او انكار ذلك . وقد الف فى الاضداد جماعة من ائمة اللغة ، منهم قطرب ، والتوزى، وابو بكر بن الانبارى ، وابو البركات بن الانبارى ، وابن الدهان ، والصاغانى » (17) ، ولكن بحثهم فى تاييد وجود التضاد او نفيه لم يسر مع الاسف فى الطريق الصحيح فكل من الفريقين قد ايد وجهة نظره بحجج منطقية تدور حول ما يجب ومالا

---

(16) الزهر للسيوطى ج 1 ص 255 : 256 ، وفقه اللغة لابن فارس ص 19 : 21 ، وقد مر بعض هذه الاختلافات فى الصوتيات .
(17) الزهر ج 1 ص 387 .

يجب . فقد « ذكر صاحب الحاصل : ان النقيضين لا يوضع لهما لفظ واحد ، لان المشترك يجب فيه افادة التردد بين معنييه ، والتردد بين النقيضين حاصل بالذات لا من اللفظ » (18) ويقول « ابو بكر الانبارى فى اول كتابه (الاضداد) : هذا كتاب ذكر الحروف التى توقعها العرب على المعانى المتضادة ، فيكون الحرف منها مؤيدا عن معنيين مختلفين 397 » ثم اصبح التضاد ما ملخصه ان كلام العرب يصحح بعضه بعضا ويرتبط اوله بآخره ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه واستكمال جميع حروفه فجاز وقوع اللفظة الواحدة على المعنيين المتضادين لانها تتقدمها ويأتى بعدها ما يدل على خصوصية احد المعنيين دون الآخر ومن ذلك قول الشاعر :

كل شىء ما خلا الموت جلل
والفتى يسعى ويلهيه الامل

فدل ما تقدم قبل « جلل » وتاخر بعده ، على ان معناه كل شىء ما خلا الموت يسير ولا يتوهم ذو عقل وتمييز ان الجلل هنا معناه عظيم (19) .

وذهب بعضهم الى ان الحرف اذا وقع على معنيين متضادين فمحال ان يكون العربى قد اوقعه عليهما بمساواة بينهما ولكن احد المعنيين لحى من العرب والمعنى الآخر لحى غيره ، ثم سمع بعضهم لغة بعض فأخذ هؤلاء من هؤلاء . قالوا : فالجون الابيض فى لغة حى من العرب ، والجون الاسود فى لغة حى آخر ثم أخذ احد الفريقين من الآخر كما قالت قريش : حسب يحسب . فكان من حسب من لغتهم فى انفسهم ويحسب لغة لغيرهم ، سموها منهم فتكلموا بها ، ولم يضع اصل البناء على يفعل (20) والراى الاخير كان من الممكن ان يقودنا الى شىء هام لو انه بنى على اساس استقرائى احصائى بدلا من الاساس المنطقى بمعنى ان نتتبع اصحاب هذا الراى المتضاد فى لهجات القبائل ثم يقومون باحصائه ثم تصنيفه حسب القبائل ، فاذا تبين ان بعض القبائل تستعمل اللفظ الواحد بمعنى وتستعمله الاخرى بمعنى واطرد هذا فى بقية الالفاظ امكن القول بهذا الراى الذى ذهب اليه الآخرون ، واذا تبين ان القبيلة الواحدة تستعمل اللفظ الواحد لمعنيين مختلفين وان هذا يطرد فى بقية الالفاظ قلنا ان العرب تضع اللفظ الواحد لمعنيين متضادين ، ثم نبحث بعدها لذلك عن علة وسبب ، ولهذا عن سبب آخر .

ومن هذا القبيل ما رواه الازدى فى كتاب الترقيص : اخبرنا ابو بكر بن دريد حدثنا عن عبد الرحمن عن عمه قال : خرج رجل من بنى كلاب ، او من سائر بنى عامر بن صعصعة الى ذى جدن ، فاطلع الى سطح ، والملك عليه ؟ فلما رآه الملك اختبره فقال له ثب اى اقعد . فقال : ليتعلم الملك انى سامع مطيع ، ثم وثب من السطح فقال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : ابيت اللعن ؟ ؟ ان الوثب فى كلام نزار الطمر . فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم ، من ظفر حمر . اى من اراد ان يقيم بظفائر فليتكلم بالحميرية . فعلى الرغم من الصنعة الواضحة فى كل خطوة من خطوات هذا الخبر ، فقد كنا نتمنى ان يتجه اللغويون هذا الاتجاه بصورة اكثر واقعية مع الفاظ مثل : الصريم بمعنى الصبح والليل ؟ والسدفة بمعنى الظلمة والضوء ، والقرء بمعنى الطهر والحيض .. الخ . بصورة تمكننا من معرفة كيفية تداخل اللهجات ، وتطورها الى الارقى عن طريق الاحتكاك ثم الانتخاب .

هـ ــ المشترك اللفظى :

وهو ان يدل اللفظ الواحد على اكثر من معنى فى وقت واحد ، وقد اختلفوا ايضا فى المشترك اللفظى « فالاكثرون على انه ممكن الوقوع ، لجواز ان يقع اما من واضعين ، بأن يضع احدهما لفظا لمعنى ، ثم يضعه الآخر لمعنى آخر ، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين فى افادته للمعنيين ، وهذا على ان اللغات غير توقيفية ، واما ومن واضع واحد لغرض الابهام على السامع حيث يكون التصريح سببا للمفسدة كما روى عن ابى بكر الصديق رضى الله عنه ــ وقد سأله

---

(18) الزهر للسيوطى ج 1 ص 397 ، الاضداد فى اللغة للانبارى ص 2 .
(19) المزهر للسيوطى ج 1 ص 397 : 398 ، الاضداد للانبارى ص 2 : 3 .
(20) المزهر ج 1 ص 401 : 402 ، الاضداد ص 10 .

رجل عن النبى صلى الله عليه وسلم وقت ذهابهما الى الغار : من هذا ؟ قال : هذا رجل يهدينى السبيل.

والاكثرون ايضا على انه واقع لنقل اهل اللغة ذلك فى كثير من الالفاظ ومن الناس من اوجب وقوعه — قال : لان المعانى غير متناهية والالفاظ متناهية ؛ فاذا وزع لزم الاشتراك .

وذهب بعضهم الى ان الاشتراك اغلب — قال : لان الحروف بأسرها مشتركة بشهادة النحاة ، والافعال الماضية مشتركة بين الخبر والدعاء ، والمضارع كذلك ، وهو ايضا مشترك بين الحال والاستقبال ، والاسماء كثير فيها الاشتراك فاذا ضممناها الى قسمى الحروف والافعال كان الاشتراك اغلب (21) .

وواضح هنا ايضا ان الخلاف جدلى فى جوهره ، غير ان دلالة المشترك اللفظى على التطور لا يمكن ان يكون محل شك لانه لا يمكن تصور ان يكون اللفظ الواحد قد وضع ابتداء للدلالة على مجموعة من المعانى المشتركة وانما المتصور انه يكون اللفظ وضع للدلالة على شىء حى فى الغالب ثم جرد بالمجاز للدلالة على شىء معنوى ، ومثل الاوز جمع اوزة لهذا الطائر المعروف ورجل اوز بمعنى غليظ ، ومثل العين بمعنى الحاسة المبصرة والعين بمعنى الجاسوس والعين بمعنى ينبوع الماء . .

اما الالفاظ المشتركة بين عدة معان حسية فاما ان يكون الاصل فيها واحدا ثم وضع لغيره لمشابهة بين الاثنين ، او ان تكون احدى القبائل قد وضعت اللفظ لشىء ثم وضعت قبيلة اخرى نفس الاسم لشىء وثالثة لشىء آخر وكذا ، من ذلك لفظ الارض ، جاء فى الصحاح : الارض المعروفة ، وكل ما سفل فهو ارض ، والارض اسفل قوائم الدابة والارض : النفضة والرعدة . قال ابن عباس فى يوم زلزلة : ازلزلت الارض ام بى ارض ، والارض : الزكام ، والارض : مصدر ارضت الخشبة لتؤرض ارضا فهى ما ارضته اذا اكلتها الارضة وفى الجمهرة : الهلال : هلال السماء وهلال السيد : وهو شبيه بالهلال يعرقب به حمار الوحش وهلال الفعل : وهو الدوابة والهلال : القطعة من الغبار . وهلال الاصبع : المطيف بالظفر ، والهلال قطعة ، والهلال : الحية اذا سلخت ، والهلال : باقى الماء فى الحوض ، والهلال : الجمل الذى قد اكثر الضراب حتى هزل .

وواضح ان اكثر ذلك يأتى من باب المجاز وهو من اهم الابواب التى تطورت بها اللغة ونمت واتسعت .

و — المترادفات :

وهو ان يدل اكثر من لفظ واحد على معنى واحد فى وقت واحد ، وكما اختلفوا فى الاشتراك والقضاء واختلفوا ايضا فى المترادف فمنهم من اقر المترادف . ومنهم من انكره ، ومنهم من يقف عند حد الاعتدال ومنهم يركب متن الشطط . (22)

ورأينا فى الترادف كرأينا فى التضاد والاشتراك وهو انه لا يتصور ان يكون الشىء الواحد قد سمى بأسماء متعددة ابتداء ، وانما المتصور ان يكون الشىء الواحد قد وضع له لفظ واحد ابتداء ، ثم مع التطور والاحتكاك وكثرة الاستعمال واستمراره اخذت تظهر للشىء الواحد اسماء اخرى لاسباب متباينة ، او ان يكون الشىء الواحد قد وضعت له اسماء مختلفة فى وقت واحد فى جهات متعددة . ثم حصل احتكاك واختلاط اختلطت معه الاسماء على الشىء الواحد واشتهرت عليه ، ولنأخذ لذلك مثلا الاسماء التى ذكرها ابن خالويه للسيف ، جاء « فى شرح الدرير . الصارم ، والزداء ، والخليل ، والقضيب ، والصفيحة ، والمفقر ، والصمهامة ، والمأثور ، والمقضب ، والكتهام ، والاثيث ، والمعضد ، والجراز ، واللدن والفطار ، وذو الكريهة ، والمشرفى ، والقساسى ، والعضب ، والحسام ، والمذكر ، والهذام ، والهذوم ، والمنصل ، والهذاذ ، والهذهاذ ، والهذاهذ ، والمخصل ، والمهذم ، والقاضب ، والمصمم ، والمطبق ، والضريبة ، والهندوانى ، والمهند ، والصقيل ، والابيض ، والغمر ،

(21) المزهر ص 369 : 370 ، وانظر فقه اللغة لابن فارس ص 65 وما بعدها .
(22) انظر المزهر للسيوطى ج 1 ص 402 : 403 .

والعقيقة ، والمبين ، وهو الذى لا يقطع ، والهندكى ايضا ، فى شعر كثير » (23) ·

فنحن نستطيع بمجرد النظر ان نرد بعض هذه الاسماء الى النسبة ، مثل الهندوانى ، والمهند ، والهندكى ، كما نستطيع بمجرد النظر أن نرد بعض هذه الاسماء الى الصفة مثل : الصارم من الصرم وهو القطع ، والخليل : من الصاحب ، واللدن من اللادن وهو المرن ، والابيض بالنظر الى لونه الصافى ، والصقيل بالنظر الى لمعانه ، والمتين بالنظر الى صلابته ·

فاذا تأكد لنا ان بعضا من هذه المترادفات ما تزال واضحة الاصل الى الحد الذى يمكن معها ردها الى اصولها من النسبة او الصفة دون رجوع الى المعاجم ، امكن القول بأن باقى الاسماء يمكن رده ايضا الى صفات يمكن استخراجها من المعاجم كالقاضب والضريبة ، والعضب ، والرداء ، والعقيقة ، والغمر .. الخ · وهو اغلبها وان القليل جدا هو الذى يتعذر الحصول على اصله · على اننا لا نذهب الى القول بأن هذه الاسماء كانت تستعمل ابدا منظورا الى نسبتها او وظيفتها وانما نقول انها هكذا كانت ثم غلبت فى الاستعمال كأسماء سواء وضحت عند السامع نسبتها ووصفيتها لم لم تتضح ، وهذا الاصل واضح جدا فى الصفات التى تطلق على افراد تحقيرا او تدليلا او تعظيما ثم تغلب عليهم فتحل محل اسمائهم الاصلية ، او تستعمل معها وهو ما يسمى بأسماء الشهرة وقد ايد المحدثون من علماء اللغات وقوع الترادف فى اى لغة من لغات البشر وذكروا لوقوعه شروطا أوردها ابراهيم انيس ونوجزها فيما يلى :

1) الاتفاق فى المعنى بين الكلمتين اتفاقا تاما فى ذهن الكثرة الغالبة ·

2) الاتحاد فى البيئة اللغوية كأن تنتمى الكلمتان الى لهجة واحدة او مجموعة منسجمة من اللهجات ·

3) الاتحاد فى العصر كأن تكون الكلمتان فى عهد خاص وزمن معين وهى النظرة التى يعبرون عنها بكلمة synchronic فلا يجوز ان نبحث الترادف بين كلمتين احداهما من العصر العباسى والاخرى من العصر الحديث مثلا ·

4) الا يكون احد اللفظين نتيجة تطور صوتى للفظ الآخر فلا نقارن بين (الجثل والجمل) بمعنى النمل (24) ·

ويشكل الترادف فى العربية بغزارته ظاهرة استلفتت نظر الباحثين قديما وحديثا ، فقد ألف فيه بعضهم كتبا منهم « مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس ، الف فيه كتابا أسماه الروض المسلوك فيما له اسمان الى الوف وافرد خلق من الائمة كتبا فى اشياء مخصوصة ، فألف ابن خالويه كتابا فى اسماء الاسد ، وكتابا فى اسماء الحية وأورد صاحب القاموس فى كتابه الذى سماه ترقيق الاسل لتصفيق العسل للعسل ثمانين اسما وكتب فيه ابن خالويه ، والقالى ، والزجاجى ، وابن السكيت ، وثعلب وغيرهم (25) ·

وقد جمع ، فون هامر Von Hammer — المفردات العربية المتصلة بالجمل وشؤونه · فوصلت الى خمسة آلاف وستمائة واربعة واربعين (26) ويكشف لنا الترادف بغزارته هذه عن التطور الكبير الذى مرت به العربية من ناحيتين ·

أولا — الناحية التاريخية :

والتى تتمثل فى :

1) تاريخ طويل مر على هذه المفردات لكى تشتق وتوضع جيلا بعد جيل حتى تتراكم على هذه الصورة الهائلة فنحن لا ندرى كم من الزمن احتاجه اشتقاق 5644 اسما للجمل وشؤونه الا اننا نقطع ان هذا الزمن لا بد ان يكون قد استغرق اجيالا كثيرة ·

---

(23) المزهر : ج 1 ص 409 : 410 ·
(24) المزهر ج 1 ص 409 : 410 (1) فى اللهجات العربية ص 178 : 184 ·
(25) المزهر ج 1 ص 407 : 413 ·
(26) فقه اللغة ، عبد الواحد ص 163 · وانظر :

2) كما تتمثل ايضا فى الاحتكاك الطويل بين مختلف القبائل على تعاقب اجيال كثيرة يقرض بعضها بعضا ويأخذ بعضها من بعض ثم يتجمع هذا الرصيد ببطء ليصبح رصيدا لغويا مشتركا تستعمله اللغة الثقافية ، ويتصرف فيه الشعراء والخطباء وتتداوله السنة الناس دون تمييز ·

ثانيا ــ الناحية الاشتقاقية :

وهى تمثل لنا مرونة عقلية ضخمة وقدرة اشترك فيها العرب على اختلافهم على التصرف فى المعانى بالمجاز ، وعلى نمو هذه المقدرة وتتوارثها جيلا بعد جيل حتى اثمرت ثمرتها فى النهاية فى خلق هذه اللغة الناضجة التى دون بها الشعر ونزل بها القرآن ·

ز ــ بصمات أخرى للتطور :

على انا نجد بالاضافة الى كل ما سبق بصمات اخرى للتطور الذى مرت به اللغة العربية تتمثل فى كثير من المظاهر اللغوية التى نذكر منها :

1) **الضعيف من اللغات :** وهو ما انحط عن درجة الفصيح ومنها فى ديوان الفارابى اللهجة لغة فى اللهجة وهى ضعيفة · وانبذ نبيذا لغة ضعيفة فى نبذ واندفع لونه لغة ضعيفة فى امتقع وتمندل بالمنديل لغة ضعيفة فى تندل وواخاه لغة فى آخاه وهى ضعيفة والامتحاء لغة ضعيفة فى الامحاء (27) ·

2) **المنكر :** وهو اضعف من الضعيف واقل استعمالا من امثلته فى الجمهرة قال قوم : بلق الدابة ، وهذا لا يعرف فى اصل اللغة ·

وفيها : قال قوم : نبلة وحدة النبل · ولبس بالمعروف ·

وفى الصحاح جرعت الماء بالفتح لغة انكرها الاصمعى والمعروف جرعت بالكسر (28) ·

3) **المتروك :** وهو ما كان قديما من اللغات ثم ترك واستعمل غيره وامثلة ذلك كثيرة فى كتب اللغة ·

قال فى الجمهرة : اسماء الايام فى الجاهلية : السبت : شبار ــ والاحد : اول والاثنين اهون واوهد والثلاثاء جبار والاربعاء دبار والخميس مؤنس والجمعة عروبة :

واسماء الشهور فى الجاهلية المؤتمر وهو المحرم وصفر وهو ناجز وشهر ربيع الاول وهو خوان وقالوا خوان · وربيع الآخر وهو ويمان وجمادى الاولى الحنين ، وجمادى الآخرة ربى · ورجب : الاصم ــ وشعبان : عادل ، ورمضان ناتق وشوال وعل وذو القعدة ورنه وذو الحجة برك (29) ·

4 ــ الردىء والمذموم :

وهو اللهجات التى سبق الكلام عنها من كشكشة وكسكسه وتلتله . . الخ ·

5) الشاذ : ومنه ما هو مطرد فى القياس شاذ فى الاستعمال وذلك نحو الماضى من بذر ويدع . وكذلك قولهم : مكان مبقل ، هذا هو القياس ، والاكثر فى السماع باقل ، والاول مسموع ايضا ابوزيد فى كتاب « جيلة ومحالة .» وانشد اعاشنى بعدك وادمبقل (30) والشاذ فى القياس والاستعمال جميعا وهو كتتميم مفعول ما عينه واو او ياء نحو ثوب مصوون ومسك مدووف وخلى البغداديون فرس تقوود ، ورجل معودود من قرضه (31) ·

6) ومن ذلك ايضا الحوشى والضرائب والنوادر : قال ابراهيم بن المهدى لكاتبه عبد الله بن صاعد : واياك وتتبع وحشى الكلام طمعا فى نيل البلاغة ، فان ذلك هو العى الاكبر وعليك بما سهل مع تجنيك الفاظ السهل · والغرائب جمع غريبة ، وهى بمعنى الحوشى ، والشوارد جمع شاردة وهى ايضا بمعناها والنوادر الشواذ قال فى الصحاح ندر الشىء يندر ندورا سقط وشذ ومنه النوادر وقد الف الاقدمون كتبا فى

---

(27) المزهر ص 214 ج 1 ·
(28) المزهر ص 218 ·
(29) المزهر ج 1 ص 219 ·
(30) المزهر ج 1 ص 227 ، 228 ؛ والخصائص لابن جنى ج 1 ص 101 ·
(31) المزهر ج 1 ص 229 والخصائص ط ص 102 ·

النوادر كنوادر ابى زيد ونوادر ابن الاعرابى ونوادر ابى عمرو الشيبانى وغيرهم ، وفى آخر الجمهرة ابواب معقودة للنوادر وفى الغريب المصنف لابى عبيد باب لنوادر الاسماء وباب لنوادر الافعال والف الصنعانى كتابا لطيفا فى شوارد اللغة ، ومن عبارات العلماء المستعملة فى ذلك النادرة وهى بمعنى الشوارد (32) ومن امثلة النوادر فى الاسماء البدرت : الرجل الدليل ، والحرش : الاثر ، والعيفة ساحل البحر (33) ·

ومن امثلة النوادر فى الافعال ما ذكره ابو عبيد فى الغريب المصنف متعت بالشىء ذهبت ، تشاول القوم : تناول بعضهم بعضا عند القتال بالرماح ، خرج يستمى الوحش يطلبها (34) ·

اللغة الثقافية :

يتضح لنا مما سبق أن هناك مراحل طويلة جدا من التطور مرت على اللغة العربية قبل ان تستكمل بناءها وادواتها علمية كانت او ادبية وقد ادرك القدماء هذا المعنى وعبروا عنه بقولهم « قال الفراء : كانت العرب القدماء تحضر الموسم فى كل عام وتحج البيت فى الجاهلية وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا افصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ »(35) و « وقال ابن فارس فى فقه اللغة : باب القول فى افصح العرب · اخبرنى ابو الحسن احمد بن محمد مولى بنى هاشم بقزوين قال حدثنا ابو الحسن محمد عبد عباس الحشكى قال : حدثنا اسماعيل بن أبى عبيد الله ، قال : اجمع علماؤنا بكلام العرب ، والرواة لاشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وايامهم ومحالهم ان قريشا افصح العرب السنة ، واصفاهم لغة ، وذلك ان الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمدا صلى الله عليه وسلم فجعل قريشا فطان حزمه ومولاة بيته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ، ويتحاكمون الى قريش فى دارهم وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة السنتها اذا اتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى سلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب (36) ·

وقد حدد الاقدمون ايضا موطن هذه اللغة الثقافية وحصروها فى نطاق معين من القبائل التى يمكن ان يقال انها تشكل وحدة حضارية تمثل مستوى خاصا من الثقافة نقل السيوطى عن أبى نصر الفارابى قوله فى اول كتابه المسمى (بالالفاظ والحروف) كانت قريش اجود العرب انتقادا للافصح من الالفاظ واسهلها على اللسان عند النطق واحسنها مسموعا ، وابينها ابانة عما فى النفس والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم اخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، واسد ، فان هؤلاء هم الذين **عنهم اكثر ما اخذ معظمه** وعليهم اتكل فى الغريب وفى الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ·

وبالجملة لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم فانه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام لمجاورتهم اهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسان

لمجاورتهم اهل الشام واكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية (37) ولا من عبد القيس ولا من عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من اهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف واهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم (38) ·

---

(32) المزهر ج 1 ص 234 ·
(33) المزهر ج 1 ص 236 ·
(34) المزهر ج 1 ص 237 ·
(35) المزهر ج 1 ص 221 ·
(36) المزهر ج 1 ص 209 : 210 ، فقه اللغة لابن فارس ص 231 ·
(37) الاصح بالسريانية ـ اللسان العربى ·
(38) المزهر ج 1 ص 211 : 212 ·

دلالة التطور العقلية والنفسية :

نستطيع بناء على ما سبق القول بأن الفكر العربى قد دخل مرحلة حضارية قبل ظهور الاسلام بما يزيد على 3000 آلاف سنة ، وظل طوال هذا التاريخ ينمو ويتطور فوجود الاصول السامية القديمة فى العربية واستمرارها طوال التاريخ لا يدل على عزلة هذه اللغة خلف رمال الصحراء الشاسعة كما ذهب المستشرقون ، لان هذا القول لو كان صحيحا لتجمدت هذه اللغة على حالها القديمة تلك ، ولما نمت وتطورت واتسعت هذا التطور والاتساع الهائل الذى يشهد به التطور الذى درسنا آثاره واللغة الثقافية التى سندرس بعض خصائصها ، بل ان ثلاثة آلاف سنة من العزلة كانت كفيلة بأن تقضى تماما على المرحلة التى قطعتها اللغة الام فى تطورها وتمرد اللهجات المتفرغة عنها الى مرحلة بدائية او شبيهة بها — لان الانسان كائن اجتماعى لا ينمو ولا يتطور ولا يتحضر الا بالاحتكاك والاجتماع — وقد شاهدنا العكس من ذلك وهو استمرار اللغة فى اتساعها ونموها وتطورها فلا بد اذن ان بقاء هذه الاصول ونموها بالتجريد والاشتقاق والمجاز راجع الى حيوية هائلة فى العقلية العربية مكنتها من الاستمرار والتطور وقدر كبير من حرية الارادة والتصرف مكنهما من أن تستفيد من احتكاكها بالحضارات دون أن تفقد شخصيتها واصالتها من جهة ، وان تندفع فى نموها وازدهارها من جهة اخرى.

ب — خصائص لغوية ذات دلالة فكرية :

تكلم العرب قديما عن خصائص اللغة العربية ، وكان الدافع لحديثهم عن الخصائص أحد سببين :

الاول : سبب دينى : وذلك لان اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم ، والقرآن كلام الله تعالى الذى لا يعلو عليه كلام ، والذى اعجز ببلاغته الانس والجن، واذن فلا بد ان تكون اللغة التى نزل بها افضل اللغات واوسعها ، يقول ابن فارس فى فقه اللغة : « لغة العرب افضل اللغات واوسعها ، قال تعالى : « وانه لتنزيل من رب العالمين ، نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين · بلسان عربى مبين (39) » فوصفه سبحانه بأبلغ ما يوصف الكلام ، وهو البيان · وقال تعالى : « خلق الانسان علمه البيان » (40) فقدم سبحانه ذكر البيان على جميع ما توحد بخلقه ، وتفرد بانشائه ، من شمس وقمر ، ونجم وشجر ، وغير ذلك من الخلائق المحكمة ، والنشايا المتقنة ، فلما خص سبحانه — اللسان العربى بالبيان علم ان سائر اللغات قاصرة عنه ووافقة دونه » (41) ·

ثم اخذ يعدد الخصائص التى تنفرد بها اللغة العربية من دون اللغات ، ومنها الترادف ، وقد سبق ان بينا فى دراسة التطور اللغوى أن الترادف مسألة خلافية كما ان دلالة اسماء كثيرة على الشىء الواحد فى نفس الوقت ادخل فى باب الخصائص لانه لا مبرر ان يثبت بدليل قاطع ان هذه الاسماء جميعا قد وضعت للشىء الواحد ابتداء ، وانها لم تكن نتيجة تطور وتقارض واحتكاك قبل النظر فيما اذا كان لدلالة اسماء كثيرة على شىء واحد فى وقت واحد مميزة فى ذاته أم لا ثم تكلم عن القلب والاعراب ، والعروض ، وحفظ الانساب ، والهمز فى عرض الكلام ، وبعض الحروف التى اختصت بها العربية ، والتصريف والنظم الذى اختص به العرب ، مثل قولهم عاد فلان شيخا ، وهو لم يكن شيخا قط · ومخالفة الظاهر كقولهم فى المدح قاتله الله ما اشعره والاستعارة والحذف والاختصار والزيادة ·

وهى خصائص يقتضى اثباتها للغة العربية وحدها التحقق من شئين :

اولا : ان يثبت بالدراسة المقارنة انها خصائص للغة العربية تنفرد بها دون اللغات ·

ثانيا : ان يتأكد ان هذه الخصائص تصلح فى ذاتها كميزة يتمدح بها ، فالاعراب مثلا ليس مما تنفرد

---

(39) سورة الشعراء 191 : 195 ·
(40) سورة الرحمن 3 : 4 ·
(41) المزهر ج 1 ص 321 ، وفقه اللغة لابن فارس ص 12 ·

به اللغة العربية ، وانما تشاركها فيه اخواتها الساميات كما ان الدراسات الحديثة تثير الشك فى قيمتـــه وفى اطراده قبل الاسلام وهو اعتراض خطير لا بد مـــن تحقيقه قبل اثبات الميزة او عدمها ·

الثانـــى سبب عنصرى : وذلك لان الشعـــوب المغلوبة وعلى راسها الفرس ، لم يرتح بعض ابنائها لغلبة العرب عليهم لاسباب لا داعى للخوض فيها ، والمهم انهم طعنوا فيما طعنوا فيه فى اللغة العربية ، وفيما يزعمه لها العـــرب من مزايـــا فى الفصاحـــة والبلاغة والبيان ومما قالوه ما رواه الجاحظ « ومن احب أن يبلغ فى صناعة البلاغة ويعرف الغـــريب ، ويتبحر فى اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند · ومن احتـــاج الى العقل والادب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات، والالفاظ الكريمة ، والمعانى الشريفة فلينظر فى سير الملوك · فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها ، ومعانيها وهذه اليونان ورسائلها وخطبها ، وعللها وحكمها ، وهذه كتبها فى المنطق التى قد جعلتها الحكماء بها تعرف المستقوم من الصحة ، والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند فى حكمها واسرارها وسيرها وعللها ، فمن قرأ هذه الكتب ، وعرف غور تلك العقول وغرائب تلك الحكم ، عرف اين البيان والبلاغة ، واين تكاملت تلك الصناعة فكيف سقط على جميع الامم من المعروفين بتدقيق المعانى ، وتخير الالفاظ وتمييز الامور ، أن يشيروا بالقنا والعصى ، والقضبان والقسى كلا ، ولكنكم كنتم رعاة الابل والغنم · فحملتـــم العصى فى الحضر بفضل عادتكم لحملها فى السفر ، وحملتموها فى المدر ، بفضل عادتكم لحملها فى الوبر ، وحملتموها فى السلم ، بفضل عادتكم لحملها فى الحرب · ولطول اعتبـــاركم لمخاطبة الابل ، جفا كلامكم وغلظت مخارج اصواتكم ، حتى كأنكم اذا كلمتم الجلساء انما تخاطبون الصمان · وانما كان جل قتالكم بالعصى · ولذلك فخر الاعشى على سائر العرب فقال :

لسنا نقاتـــل بالعصى ولا نرامى بالحجاره
الا عـــلالة أو بـــدا هة قارح نهد الجزراة (42)

وقد رد الجاحظ على هذه الاتهامـــات معـــددا الخصائص التى تتميز بها عقلية العرب ولغتهم على سائر اللغات فقال « وجملة القول انا لا نعرف الخطب الا للعرب والفرس · فأما الهند فانما لهم معان مدونة وكتب مخلدة لا تضاف لرجل معروف ولا الى عالم موصوف وانما هى كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ·

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق · وكان صاحب المنطق نفسه بكى اللسان غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه وهم يزعمون أن جالينوس كان انطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة · وفـــى الفرس خطباء ، الا ان كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم فانما هو عن طول فكرة ، واجتهاد راى ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ، وحكاية الثانى علم الاول ، وزيادة الثالث فى علم الثانى ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم · وكل شىء للعرب فانمـــا هـــو بديهـــة وارتجال ، وكأنه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكر ولا استعانة ، وانما هو ان يصرف وهمه الى الكلام ، والى رجز يوم الخصام ، او حين يمنح على راس بئر ، او يحدو ببعير ، او عند المقارعة او المناقلة او عند صراع او فى حرب ، فمـــا هـــو الا ان يصرف همه الى جملة المذهب ، والى العمود الذى اليه يقصد فنأتيه المعانى ارسالا ، وتنثال عليه الالفـــاظ انثيالا يقيده على نفسه ولا يدرسه احد من ولده · وكانوا اميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفـــون وكـــان الكلام الجيد عندهم اظهر واكثر ، وهم عليه اقدر ، وله اقهر ، وكل واحد فى نفسه انطق وبكائه من البيان ارفع وخطباؤهم للكلام اوجد ، والكلام عليهم اسهل ، وهو عليهم ايسر من ان يفتقروا الى تحفظ ، ويحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من قبله ، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب وان شيئا هذا الذى فى ايدينا جزء منه الا بالمقدار الذى لا يعلمه الا من احاط بقطر السحاب، وعدد التراب ، وهو الله الذى يحيط بما كان والعالم بما سيكون ·

(42) البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج 3 ص 14 : 15 ·

ونحن ــ ابقاك الله ــ اذا ادعينا للعرب اصناف البلاغة من القصيد والارجاز ومن المنثور والاسجاع ومن المزدوج ومالا يزدوج فمعنا العلم ان ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت الذى لا يستطيع اشعر الناس اليوم ولا ارفعهم فى البيان ان يقول مثل ذلك الا فى اليسير والنبذ القليل ·

ونحن لا نستطيع ان نعلم ان الرسائل التى بأيدى الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة واذ كان مثل ابن المقفع وسهل ابن هارون ، وابى عبيد الله وعبد الحميد ، وغيلان يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير » (43) والجاحظ هنا يلقى الكلام على عواهنه، ويرسله ارسالا بلا تدقيق او تحقيق فما هذه البديهة التى يتحدث عنها ، وما حدها وما مداها وما الفرق بين البديهة والالهام بهذا المعنى وكيف يتفق هذا وما ورد من شعر يدل على اناة شديدة واعمال فكر شديد وهو الطابع الغالب على القصيدة الكاملة ، وكيف يتفق هذا مع تحكيك زهير لقصائده حتى يحول عليها الحول قبل اخراجها للناس ؟

وما هو الطبع وما حده وما مداه ؟ كلام مرسل لا يدل على شىء ·

وكذلك الكلام عن السجع والازدواج والديباجة والرونق · كلام مرسل ، اذ لا يتصور ان ينفرد العرب مثل الديباجة والرونق دون غيرهم من الامم كما لا يمكن تصور قيمة حقيقية للسجع والازدواج خارج اطار معين وهكذا نجد ان الكلام عن الخصائص بسبب من الدين او بسبب من النعرة لم يؤسس على اساس سليم، ولم يعرف حقه من البحث والمقارنة ·

ولكنا سنعترض هنا لبعض الخصائص اللغوية على اساس مختلف ولسبب مختلف ·

اما الاساس فانا لا ننظر الى الخصائص من ناحية تفرد العربية بها ، وانما ننظر اليها من ناحية ارتباطها ببعض الخصائص العقلية ودلالتها عليها ، او على اساس ان اللغة ظاهرة اجتماعية تتأثر بالظروف التى يعيشها المجتمع فتتخلف بتخلفه وتتقدم بتقدمه وتنعكس عليها كافة الآثار العقلية والاجتماعية ·

اما السبب فهو اننا نقيس عن طريق هذه الخصائص المستوى الحضارى للفرد عن طريق دراسة الظواهر التى تحتاج لعمليات عقلية وشروط نفسية خاصة لا توجد ولا تنمو ولا تتطور الا بواسطتها ومن خلالها ·

وقد تبلورت لدينا هذه الخصائص ذات الدلالة الخاصة ، والتى سندرسها على الترتيب فيما يلى :

1) الاشتقاق

2) التجريد والمجاز

3) الزمن كصيرورة ·

ا ــ الفعل المضارع وما شابهه

ب ــ الايجاز

الفصل الاول

(1) الاشتقاق :

قسم بعض العلماء الاشتقاق الى صغير وكبير واكبر والاشتقاق الصغير او الاصغر كما يسمى ايضا هو الاشتقاق الاساسى الذى بنيت عليه المادة المعجمية كلها وهو الذى يهمنا امره فى هذا البحث ، لانه من اخطر الاصول اللغوية دلالة على العمليات العقلية والنفسية المختلفة وارتباطا بها وهو يحتاج الى ــ ويدل فى الوقت ذاته على ــ عدة عمليات مثل الملاحظة والجمع والترتيب والمقارنة والاستنتاج والادراك والخيال ورقة الاحساس ودقة التمييز فهو مقياس بالغ الاهمية لكل هذه العمليات على اختلافها وهو يستطيع ان يضع ايدينا على مقدرة العرب على الترقى من الحسى الى المعنوى وعلى التدرج فى الحسى والمعنوى ، وعلى ادراك العرب للعلاقات التى تربط الاشياء والكائنات بعضها ببعض ·

(43) البيان والتبيين ج 3 ص 27 : 29 ·

ولكنا لا نستطيع أن نتصور هذه العلاقات الا اذا نظرنا الى الاشتقاق نظرة لغوية مستبعدين جهد الامكان النظرة المنطقية الى اللغة والنحو ، اى الا اذا نظرنا الى الاشتقاق من وجهة نظر تاريخية فى ضوء النصوص الموجودة فعلا ، لا من وجهة تقعيدية فالموازين الصرفية والقواعد النحوية قد وضعت بعد الاسلام وبعد عصر التدوين ومهما كان من اعتماد هذه الموازين والقواعد على النصوص فقد غلب التصور المنطقى على عقلية الذين وضعوا هذه القواعد واقاموا هذه الموازين .

فقد اختلف الكوفيون والبصريون حول مصدر الاشتقاق هل هو الفعل او المصدر أما الكوفيون فذهبوا الى ان أصل الاشتقاق هو الفعل واحتجوا لرايهم بما يأتى :

1) ان المصدر يصح لصحة الفعل ويعتل لاعتلاله.

2) ان الفعل يعمل فى المصدر .

3) ان المصدر يذكر تأكيدا للفعل .

4) ان المصدر لا يتصور معناه ما لم يكن فعل فاعل .

5) ان المصدر انما سمى مصدرا لا لصدور الفعل عنه كما يقول البصريون وانما لانه مصدور فدل ذلك على ان الفعل أصل والمصدر فرع لانه تابع له فيما سبق .

واما البصريون فقالوا ان أصل الاشتقاق هو المصدر واحتجوا لرايهم بما يأتى :

1) ان المصدر يدل على زمان مطلق والفعل يدل على زمان معين .

2) ان المصدر اسم والاسم يقوم بنفسه ويستغنى عن الفعل واما الفعل فانه لا يقوم بنفسه ويفتقر الى الاسم .

3) ان الفعل بصيغته يدل على شيئين الحدث والزمان المحصل ، والمصدر يدل بصيغته على شىء واحد وهو الحدث .

4) ان المصدر له مثال واحد نحو الضرب والقتل والفعل له امثلة مختلفة .

5) ان الفعل يدل بصيغته على ما يدل عليه المصدر وليس العكس .

6) ان المصدر لا يجرى على سنن فى القياس ولو كان مشتقا من الفعل لما اختلف فى اسماء الفاعلين والمفعولين .

7) ان المصدر ولو كان مشتقا من الفعل لدل على ما فى الفعل من الحدث والزمان وعلى معنى ثالث .

8) ان المصدر لو كان مشتقا من الفعل لوجب حذف الهمزة فى مثل اكرم اكراما كما حذفت فى اسم الفاعل والمفعول تحوم « يكرم وفكر » .

9) ان الاصل فى تسمية المصدر هو الموضوع الذى يصدر عنه . وكل هذا دليل على ان المصدر أصل والفعل فرع .

ويلاحظ على ادلة الفريقين انهما فى اساسها ادلة مصنوعة كما يلاحظ أن ادلة الكوفيين اقرب الى الواقع كما انها تطابق القاعدة التى جرت عليها كتب النحو والصرف فى اشتقاق المصادر والمشتقات المشهورة مثل اسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان وغيرها من الافعال لا من المصادر ورغم المنطقية التى تتحكم فى آراء الفريقين فاننا نجد الكوفيين قد احتجوا بحجة قوية ذات طبيعة استقرائية وهى ان المصدر لا يتصور معناه ما لم يكن فعل فاعل وهى حجة تهدم حجة البصريين الاساسية وهى ان المصدر أصل لانه يدل على زمان مطلق بينما الفعل يدل على زمان مقيد وذلك اطلاق المصدر يجعله غير صالح للاشتقاق لان الاشتقاق من هذا المطلق يحتاج الى عقلية فلسفية نظرية لا الى عقلية واقعية عملية وهى العقلية التى قامت بمسؤولية الاشتقاق على طول تاريخ العربية القديم قبل ان تظهر المدارس والمجامع اللغوية والنحوية المتخصصة هذا بالاضافة الى اضطراب البصريين فى تصور المصدر فهو اسم حينا ودال على الزمان حينا ودال على الحدث دون الزمان حينا مع أن ابن مالك وهو يشرح مذهب البصريين اكثر ما يشرح يقول :

المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كأمن من أمن

على أن القول بالاشتقاق من الفعل أو المصدر كليهما تحكم لا مبرر له ، وهو يخالف فى الوقت نفسه الواقع العملى للاشتقاق كما تصوره المادة المعجمية نفسها ، لقد نظر النحاة الى الاشتقاق من ناحية الميزان الصرفى الذى وضعوه بأنفسهم فأدى ذلك الى ان اصبحوا هم أنفسهم اسرى هذه الصيغ الصرفية .

وقد ذهب ولفنسون مذهب الكوفيين فى القول بأن الاشتقاق لا يكون الا من الفعل فقال « ان من خصائص الساميات ان اغلب الكلمات فيها مشتق من اصل ثلاثى وثنائى وهذا الاصل فعل يضاف الى أوله أو آخره حرف أو اكثر .

نشأ من اشتقاق الكلمات من أصل هو الفعل ان سادت العقلية الفعلية — اذا صح هذا الاستعمال — على اللغات السامية ، اى أن لاغلب الكلمات فى هذه اللغات مظهرا فعليا حتى فى الاسماء الجامدة والالفاظ الدخيلة التى تسربت من اللغات الاجنبية . فقد اخذت هذه الكلمات مظهرا فعليا ايضا .

وقد راى بعض علماء اللغة العربية أن المصدر الاسمى هو الاصل الذى يشتق منه أصل كل الكلمات والصيغ ، ولكن هذا الراى خطأ — فى رأينا — لانه يجعل أصل الاشتقاق مضافا لاصله فى جميع أخواتها السامية .

وقد تسرب هذا الراى الى هؤلاء العلماء من الفرس الذين بحثوا فى اللغة العربية بعقليتهم الآرية والاصل فى الاشتقاق عند الآريين أن يكون من مصدر أسمى .

اما فى اللغات السامية فالفعل هو كل شىء فمنه تتكون الجملة ، ولم يخضع الفعل للاسم والضمير بل نجد الضمير مسندا الى الفعل ومرتبطا به ارتباطا وثيقا .

وعلى كل حال فنظرية العقلية الفعلية فى اللغات السامية هى نظريتنا الخاصة اذا لم يشر اليها أحد من علماء الافرنج » (44) والى هذا الراى ايضا ذهب بعض الباحثين من المستشرقين كما بين ذلك فؤاد حسنين فى نقده لادعاء ولفنسون انه يتفرد وحده بين العلماء الغربيين بهذا الراى ، فقد ذكر فؤاد حسنين أن « هذا الراى وحده قد شغل العلماء وقتا طويلا فبعضهم من افرد له الابحاث العديدة فى مجلات المستشرقين والبعض الآخر لم يقنع بذلك فكتب فيه الكتب الكثيرة وكان ذلك فى القرن التاسع عشر فالنظرية العقلية ، ليست وليدة القرن العشرين وليست من نتائج قريحتك بل هى ثمار القرن التاسع عشر فى أوربا ونتيجة من نتائج ابحاث جمهرة من اكابر مستشرقى المانيا » (45) .

كما ذهب باحثون آخرون الى أن أصل الاشتقاق فى العربية هو الاصول الثنائية يقول الاب انستاس كرملى « الثنائية bilittéralism هى النظرية القائلة بأن الاصول فى العربية — وكذلك فى اخوانها السامية — ليست الالفاظ ذوات الحروف الثلاثة ، بل ذوات الحرفين ، اذن من شأن الثلاثيات أن ترد الى الثنائيات » (46) وقد دافع عن هذه النظرية جورجى زيدان فقال « ان الالفاظ المانعة (47) الدالة

---

(44) تاريخ اللغات السامية ، ولفنسون ص 14 : 15 .
(45) اللغات السامية فؤاد حسنين بحث صغير بدون ترقيم .
(46) المعجمية العربية ص 6 .
(47) يقسم جورجى زيدان الالفاظ من حيث الدلالة الى « الفاظ ذات دلالة مطلقة ويسميها « الفاظا مطلقة وهى التى تصح الدلالة بواحدة منها على اى موجود حسبا كان او معنويا ، وتشتمل على الضمائر واسماء الاشارة واسم الموصول وما شاكل ذلك . والى ذات دلالة مانعة وندعوها تساهلا « الفاظا مانعة » اى لا يمكن الدلالة باحدها الا على قسم من الموجودات او على نوع واحد من المعنى . فبقولنا « حيوان » مثلا نقصد بعض الموجودات وهكذا لو قلنا « مادة » او « قوة » اذ يخرج فى الاولى جميع ظواهر القوة كالانفعالات والعقليات ، وفى الثانية تخرج المادة وظواهرها ولكن بقولنا « هذا » ربما نقصد الحيوان او المادة او القوة او المحبة ان الحزن أو الفرح او ما شاكل ذلك ونقول « انت » لكل ما نخاطبه جمادا كان او حيا حسيا او معنويا ، وكذا فى البواقى . والالفاظ المانعة تقسم الى « دالة على معنى فى نفسها » وتنحصر فى الفعل والاسم ومشتقاتها ودالة على معنى فى غيرها « وهى الحروف وما شابهها » الفلسفة اللغوية زيدان ص 55 .

على معنى فى نفسها يرد معظمها بالاستقراء الى اصول ثنائية (احادية المقطع) تحاكى اصواتا طبيعية (48)·

وتشتمل هذه الالفاظ على الاسم والفعل وما يشتق منها واللغويون يردون كلا من الاسم والفعل الى اصول معظمها ثلاثية وبعضها رباعية ، ولا يرون هذه الاصول قابلة للرد الى اقل من ذلك ، وعندى أنها قابلة ولو بعد العناء . . » (49)

ويؤيد مراد كامل وجهة نظر جورجى زيدان بقوله « ان اقدم الاسماء صيغة فى اللغات السامية هى الاسماء الثنائية وقد حافظت العربية على بنائه الأصلى فى كثير منها ، غير انها اشتقت من بعضها صيغا جديدة » (48) الا انه على الرغم من اقتناعه بأن اقدم الاسماء فى اللغات السامية صيغة هى الاسماء الثنائية ، الا انه لا يرى ان هذه الاسماء وحدها هى الاصل فيقول : « وهناك اسماء ثلاثية اصلية نجدها مشتركة فى اللغات السامية وهى على الاخص اسماء الاشياء المادية المنظورة الملموسة منها للحيوان : النمر والذئب والابل والثور والحمار والكلب والخنزير والنسر والذباب ، ومنها للنبات : العنب والثوم والقثاء والكمون ومنها لاعضاء الجسم الراس والعين والاذن والانف والسن والشعر والشفة والظفر والركبة والذنب والقرن واللب والكلية والكتف ، ومنها لغير ذلك : السماء والشمس والارض والحقل والبئر والبيت والعمود والعرش والقوس والحبل والاناء والقمح والدبش ، وهذه الاسماء كلها لم تشتق من الافعال والدليل على ذلك :

1 — انه فى كثير منها لا يكاد معناها ان يحتمل الاشتقاق من فعل اصلا فمن اى فعل نشتق اسماء كالذئب والقدم والراس والارض ؟ ولماذا نفترض أن يكون هناك فعل اسبق من هذه الاسماء وامثالها ؟

2 — ان بعض هذه الاسماء تخالف الافعال التى يحمل معناها الاشتقاق منها مخالفة تامة مثل الاذن ففعلها السمع ، وكذلك العين وفعلها رأى .

3 — لا نجد صلة بين اوزان هذه الاسماء ومعانيها فانا نرى الاسماء المتقاربة فى المعنى متقاربة فى الوزن نحو الثور والحمار والعين والاذن ، ولو اشتقت من افعال لكان لكل معنى وزن واحد بنيت عليه الاسماء او اوزان قليلة . . » (51) ·

بل انه يذهب الى أن بعض الصيغ الرباعية مثل فعلل قديمة جدا فى اللغات السامية ومن اوزانه : عكبر وعقرب وارنب وهى سامية الاصل » (52) وان كان لا يمنع احتمال أن تكون الباء فى عقرب وارنب علامة الحقت للدلالة على معنى كل منهما (53) ·

كما يذهب الى أن هناك اسماء مشتقة من الافعال فيقول « ومن اسماء الاشياء المادية ما اشتق من الافعال مثال ذلك اسماء الآلة والمكان وهى سامية الاصل · ووزن مفعال للالة اصله فعال ثم الحقت به الميم ، وفعال أقدم وزن لاسم الآلة فى اللغات السامية ومنه : سنان ونطاق ولسان » (54) ثم يذهب فى نهاية الامر الى أن الاشتقاق بالنسبة الى العربية بالغ المرونة حيث يقول واكثر اللغات السامية امسكت عن اشتقاق الاسماء الجديدة فى زمان قديم جدا الا على القليل من الوزان كالمصادر والانساب فأصبحت جملة اسمائها محدودة لا يزاد عليها الا القليل فى المادة الطويلة ، فاشتقاق الاسماء فيها ميت او يكاد · وداومت

---

(48) ذهب الى هذا ايضا بعض اللغويين العرب يقول بن جنى « وذهب بعضهم الى ان اصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشجيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ونحو ذلك · ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندى وجه صالح ، ومذهب متقبل » الخصائص ط ص 44 — 45 ·

(49) الفلسفة اللغوية ص 98 ·

(50) الفلسفة اللغوية ، هامش ص 101 ·

(51) نفس المصدر هامش ص 102 — 103 ·

(52 ، 53 ، 54) نفس المصدر هامش ص 104 ·

(53) الفلسفة اللغوية هامش ص 104 — 105 ·

(54) انظر كتاب الاشتقاق ، لعبد الله امين ففيه تفصيل واف لهذا الموضوع ·

اللغة العربية تشتق الاسماء الجديدة الكثيرة على الاوزان المتنوعة · وجاز للشاعر أن يرتجل الاسماء الجديدة على الاوزان المعروفة فكانت الكلمة تستخدم مرة فى بيت من الشعر ثم لا يعاد استخدامها وكانت جملة الاسماء غير محدودة بل قابلة للزيادة والنقصان فى كل وقت ووجد عدد من الاسماء فى الواقع وان لم يوجد فى الاستعمال ثم جمع اللغويون الكلمات المروية فى الشعر عند العرب وضبطوا معانيها » (53) ·

وهكذا نجد ان الدراسة الحديثة المؤسسة على منهج المقارنة بين اللغات السامية تلتقى مع الصورة الواقعية التى تقدمها المعاجم العربية فحين ينظر الى المادة المعجمية .. نجد ان اصل الاشتقاق مرن جدا ، كما نجد ان الاشتقاق عملية عقلية تقوم على اساس ملاحظة المناسبة بين المشتق والمشتق منه بصرف النظر عن نوع المشتق ، حتى انا لا نكاد نجد مادة معجمية لم تكن عندهم صالحة للاشتقاق ، سواء اكانت هذه المادة اسما او فعلا او حرفا (54) ·

1 ــ الاشتقاق من الاسماء :

لا يخضع الاشتقاق من الاسماء لقاعدة معينة فكل اسم قابل للاشتقاق ولكن هذا لا يعنى ان كل اسم يجب ان يشتق منه ، وانما ذلك امر متروك للظروف العملية وحدها ، فقد اشتق العرب مثلا من :

× اسماء العدد واسماء الازمنة : فمن اسماء العدد : ثنيته اثنيته ثنيا صرت معه ثانيا ، وثنيت الشيء بالتثقيل : جعلته اثنين · المصباح المنير ، ومن اسماء الازمنة ، الاصيل : الوقت بعد العصر الى المغرب ، وآصلنا : دخلنا فى الاصيل ، لسان العرب ·

× اسماء الاعيان :

أ ــ الامكنة : الحرم : مكة واحرم القوم : دخلوا فى الحرم · لسان العرب .

السرب : المسلك فى خفية او الانسراب الدخول فى السرب · لسان العرب .

الشرق : ناحية طلوع الشمس · وشرقوا ذهبوا الى الشرق ، أو اتوا الشرق لسان العرب ·

ب ــ اسماء القبائل : قيس قبيلة من مضر : تقيس فلان : اذا تشبه بهم وتمسك منهم اما بحلف او جوار ، او ولاء ، لسان العرب ·

ج ــ اسماء الاقارب : الاب : ابوت وابيت : صرت ابا وابوته اباوة : صرت له ابا · ويقال : ماله اب يابوه : اى يغذوه ويربيه ، وتابينت ابا : اى اتخذت ابا : لسان العرب ·

د ــ اعضاء الجسم : اشتق العرب من اسماء الاعضاء افعالا ، اما تصريحا او ضمنا ومن هذه الافعال اشتقوا المصادر وجميع المشتقات ومن ذلك :

الابط : باطن المنكب : وتأبط الشيء : وضعه تحت ابطه ، لسان العرب ·

الاذن : عضو السمع : واذنه اذنا فهو ماذون : اصاب اذنه على ما يطرد فى الاعضاء ، وآذنه كاذنه اى ضرب اذنه وقال : اذنت للشيء واذن له اذنا : اذا استمعت له ، لسان العرب ·

*** اسماء متنوعة :**

الجيش : الجنود يسيرون لحرب او غيرها : يقال جيش فلان اى جمع الجيوش واستجاشه : اى طلب جيشا ، لسان العرب ·

الحبل : الرباط : وحبل الشيء حبلا شده بالحبل · لسان العرب ·

الحصباء : الحصى واداته حصيته والحصى صغار الحجارة ، حصبه يحصبه حصبا : رماه بالحصباء ، وتحاصبوا : تراموا بالحصباء ، لسان العرب ·

الخطام : كل ما وضع فى انف البعير ليقاد به ، وخطمه بالخطام يخطمه خطما ، وخطمه : كلاهما جعله على انفه ، وكذلك اذا حز انفه حزا غير عميق ، يوضع عليه الخطام ، لسان العرب ·

الذئب من الحيوان المفترس · فيه خبث ودهاء وهو شبه الكلب فى الجسم : وذأب الرجل ذآبة ، وذئب ·

وتذأب : خبث وصار كالذئب خبثا ودهاء ــ وذئب الرجل نزع من الذئب وذابته : نزعته ، لسان العرب ·

والاشتقاق من الاسماء على اختلافهـا كثيـر جدا ولا يقع تحت حصر ، ولا يتصور ان تكون هـذه الاسماء نفسها مشتقة عن افعال او مصادر لانه لا يوجد لها موازين معينة ولا طرق واضحة فى الاشتقاق يمكن ان توضع لها اقيسة مطردة كالاسماء التى تؤخذ من غيرها مادة ومنها المصادر نفسها ، وانما الممكن هو ان يكون غيرها من المشتقات والافعال والمصادر مأخوذا عنها ، لان لكل منها موازين معينة ، وطرقا فى الاخذ مطردة .

ومما يقوى ان الاشتقاق قد وقع فى الاسماء ابتداء دون ان تكون هذه الاسماء نفسها مشتقة من مصادر وافعال ، ان العرب قد اعربوا اسماء اعجمية ، ثم اشتقوا منها مصادر وافعالا ومشتقات ــ وذلك عندهم كثير جدا ــ ولا يعقل ان يكونوا قد اشتقوا من افعال او مصادر هذه الاسماء فى مصادرها الاعجمية ، ومن هذه الاسمـاء :

الدرهم والدريهم لغتان . فارسى او يونانى (55) معرب ملحق ببناء كلامهم :

ورجل مدرهم ولا فعل له : كثير الدراهم . حكاه ابو زيد قال :

ولم يقولوا درهيم . قال ابن جنى : لكنه اذا وجد اسم المفعول فالفعل حاصل ، ودرهمت الخبـازى : استدارت فصارت على اشكال الدراهم فعلا وان كان اعجميا ، قال ابن جنى واما قولهم : درهمت الخبازى فليس من قولهم : الرجل مدرهم ، لسان العرب .

الفلفل : بالضم معروف لا ينبت بأرض العرب وقد كثر مجيئه فى كلامهم . وقد فلفل الطعام والشراب . . وثوب مفلفل : اذا كانت دارات وشيه تحكى استدارة الفلفل وصفره ، وخمر مفلفل القى فيه الفلفل ، فهو يحذى اللسان ، وشراب مفلفل : اى يلذع لذع الفلفل لسان العـرب .

وقد صرح النحويون بجواز الاشتقاق من الاسم الرباعى ووقوعه فيه . يقول جمال الدين ابو عبد الله محمد بن مالك فى كتاب (تسهيل الفوائد ، وتكميـل المقاصد فى النحو) (فصل) انفرد الرباعى بفعلـل لازما ومتعديا لمعانى كثيرة . وقـد يصاغ مـن اسم رباعى ، التسهيل 56 : 57 .

ويقول سيبويه فى (هذا باب تمثيل ما بنت العرب من نبات الاربعة فى الاسماء والصفات غير مزبدة وما الحقها من نبات الثلاثة كما لحقها فى الفعل ما يأتى :

فالحرف من نبات الاربعة يكون على مثال فعلل ، فيكون فى الاسماء والصفات فالاسماء نحو جعفـز ، وعنبر ، وجندل ، والصفة : مسلهب وجلحم ، وشجعم ، وما الحقوا به من نبات الثلاثة حوفل ، زينب وجدول ، ومهدد ، وعلقى ، ورعشن ، وسبنتـة ، وعنسـل

وهذا النحو لانك لو صيرتهن فعلا كن بمنزلـة الاربعة . فهذا دليل الا ترى انك حيث قلت : حوقلت وبيطرت ، وسلقيت اجريتهن مجرى الاربعة » (56).

2 ــ الاشتقاق من حروف :

وقع الاشتقاق فى المعاجم من الحـروف على اختلافها ، سواء اكانت حروفا للمعانى ، او حـروفا هجائيـة .

أ ــ حـروف المعانى : من ذلك :

سوف : كلمة معناها التنفيس والتأخير ، قال سيبويه : سوف : كلمة تنفيس فيما لم يكن بعد ، الا ترى انك تقول : سوفته : اذا قلت له مرة بعد مرة ، سوف افعل ، لسان العرب .

نعم : قالوا : نعم الرجل ، اذا قال له نعم ، ونعم نعم كقولك بلى ، الا ان نعم فى جواب الواجب وهى موقوفة الآخر ، لانها حرف جاء لمعنى ، وفى التنزيل « هل وجدتم ما وعدتكم حقا ؟ قالوا : نعم . ونعم الرجل : قال له نعم ، فنعم بذلك بالا ، وانعم له : اى قال له : نعم ، لسان العرب .

---

(55) فى الجمهرة ج 3 ص 368 ان الكلمة معربة وكذلك فى اللسان ولم يذكر مصدرها وذكر الاب انستاس الكرملى فى مجموع النقود العربية (حاشية ص 24) ، الدرهم فى اليونانية دراهمى : انظر تعليـق محمود شاكر على مادة درهم هامش المعرب للجواليقى ص 48 .

(56) سيبويـه 2 ــ 335 .

ب ــ حروف الهجاء : من ذلك :

حرف التاء : رجل تأتا وعلى فعلال ، وفيه تأتاه : يتردد فى التاء اذا تكلم ، والتأتأة حكايــة الصوت ، لسان العرب ·

حرف الفاء : الفأفأة على فعــلال الذى يكثــر ترداد الفاء اذا تكلم ، والفأفأة حبسة فى اللسان ، وغلبةالفاء على الكلام ، وقد فأفأ ، ورجل فأفأ وفأفاء يمد ويقصر وامراة فأفاة ، وفيه فأفأة · الليث : الفأفأة فى الكلام كأن الفاء تغلب على اللسان فتقول : فأفأ فلان فى كلامه فأفأة ، وقال المبرد : الفأفأة : الترديد فى الفاء ، وهو ان يتردد فى الفاء اذا تكلم ، لسان العرب·

هذا فيما يختص بالاشتقاق من الاسماء والحروف اما لاشتقاق من الافعال فلا حاجة الى ايراد امثلة له لانه اشهر انواع الاشتقاق وعلى اساسه قامت القواعد

وهكذا يتبين لنا أن الاشتقاق لا يمكن ارجاعه الى اصل واحد بعينه ويظهر أن بعضا من اللغويين القدماء قد تنبه الى هذه المسألة بعد تدوين المعاجم ، وظهور تنوع مصادر الاشتقاق فيها ، فقد ذكر السيوطى قول « طائفة من المتأخرين اللغويين كل الكلم مشتق ، ونسب ذلك الى سيبويه والزجاج » (57) وان كان التعميم على هذه الصورة يجنح الى التطرف كما لاحظ ذلك السيوطى (58) ــ لا لما يستلزمه من قول بالدور والتسلسل كما ذهب (59) وانما لان بعض المكلم وهو الحروف الابجدية يستحيل أن يكون لها مصدر اصلى نشتق منه ، وان كان من الممكن أن تكون هى نفسهــا مصدرا للاشتقاق كما مر ·

وخلاصة القول أن الاشتقاق لا يرجع الى سبب آخر وراء مناسبة المعنى بين المشتق والمشتق منه فكون المشتق منه فعلا أو اسما أو حرفا لا دخل له فى عملية الاشتقاق ذاتها فليس هناك أصل وفرع ، وانما هناك مشتق ومشتق منه أو كما يقول تمــام حسان الاشتقاق « رد لفظ الى آخر لموافقته اياه فى حــروفه الاصلية ومناسبته له فى المعنى » (60) فالقول بأن كلمة او صيغة اصل لكلمة او صيغة اخرى مردود فى القديم والحديث فلا الفعل كما يقول الكوفيون ، ولا المصدر ، كما يقول البصريون ، أصل للمشتقات ، لانك قد رايت ان الادلة على اصالة كل منهما ضعيفة لا تقاوم النظرة الفاحصة · فما وجه القول اذا فى الاشتقــاق ، وما نظرة علم اللغة الحديث اليه ؟

وجه القول كما اراه فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، ان مسألة الاشتقاق تقوم على مجرد العلاقة بين الكلمات واشتراكها فى شىء معين خير من أن تقوم على افتراض اصل منها وفرع » (61) ·

الصيغة او الميزان الصرفى :

ولكن اذا كان الاشتقاق كسب لنا على هــذه الصورة المرونة العظيمة فى العقلية العربية ، وطاقــة الخيال الواسعة القادرة على ادراك مختلف العلاقات الدقيقة والمناسبات المتنوعة بين الاشيــاء والاشيــاء ــ او بين الاشياء والمعانى ــ او بين المعانى والمعانى او بين الافعال والاشياء والمعانى .. فان الصيغــة التى بنى عليها الاشتقاق او الميزان الصرفى للكلمــة يكشف لنا عن خاصية تكاد تنفرد العربية بها « وتدخل الصيغة فى الجدول كما تدخل الامثلة اى الكلمــات التى توزن عليها ــ فنحــن نستطيــع أن نصــرف الصيغة من غير الاستعانة بامثلتها ، وهذه خاصــة من خواص اللغة العربية ، وربما كانت فى اللغــات السلمية ايضا · مثال ذلك :

انا	افتعلت افتعل	
نحن	افتعلنا نفتعل	
انت	افتعلت تفتعل	افتعلى
انت	افتعلت تفتعلين	افتعلى
انتما	افتعلتما تفتعلان	افتعــلا

(57 ، 58) الزهر ج 1 ص 348 ·
(59 ، 60) مناهج البحث فى اللغة تمام حسان ص 178 ·
(61) نفس المصدر ص 181 ــ 182 ·

انتم	افتعلتم	تفتعلون	افتعلوا
انتن	افتعلتن	تفتعلن	افتعلن
هو	افتعل	يفتعل	
هى	افتعلت	تفتعل	
هما	افتعلا	يفتعلان او تفتعلان	
هم	افتعلوا	يفتعلون	
هن	افتعلن	يفتعلن	

ومثل هذا يمكن أن يتم مع كل صيغة من صيغ الافعال نتيجة ذلك تصريفا فى الداخل مورفيم الافتعال· بحسب اختلاف الضمائر الشخصية التى يعبر كل منها عن مورفيم آخر هو المتكلم او الخطاب او الغيبة مع مورفيم الافراد او التثنية او الجمع ·

واكتفاء الصرف بالصيغة كاكتفاء الاصوات بالصوت ، واكتفاء التشكيل بالحرف والمقطع استكفاء قرضه التحليل · والا فليست هذه الا مفهومات منهجية لا تعبيرات باللغة ·

ونحن لا نتكلم اصواتا ، ولا حروفا ، ولا مورفيمات ، ولا صيغا ، وانما نتكلم جملا مفيدة مركبة من هذه الاجزاء التحليلية ، التى يعتبر النظر المنهجى مسؤولا عن اكثرها ، حيث يخلقها باعتبارها وسائل تقسيمية ، أو ادوات لتناول مادة اللغة تناولا ينبنى على منهج خاص · فالصيغة جزء من المنهج لا من اللغة نفسها ، وانك تقول « خرج محمد بالامس » فنتكلم على شرط اللغة ولا نقول « فعل مفعل بالفعل » لان هذا ليس من اللغة ·

واللغة العربية محظوظة جدا بوجود هذه الصيغ الصرفية لان هذه الصيغ تصلح لان تستخدم اداة من ادوات الكشف عن الحدود بين الكلمات فى انسياق ويشكو معظم لغات العالم من عدم وجود مثل هذا الاساس الذى يمكن به ان تحدد الكلمات (التاكيد من عندى) ·

والباحثون فى لغات غير لغاتهم جديدة عليهم يعانون التعب والمشقة اللذين يجدونهما فى سبيل هذا التحديد فيمدون الى كل الوسائل الممكنة يستخدمونها فى هذا الغرض ، ويظهر القسر والعسف فى استخدامها واضحا · **فاما اتخاذ الصيغة الصرفية اداة من ادوات خلق الحدود بين الكلمات فى السياق ، فميزة اللغة العربية من كبريات ميزاتها التى تفاخر بها** (التاكيد من عندى) ·

وتساعد الصيغة فى الاعم الاغلب على تحديد الباب ايضا ، ذلك لان معناها الوظيفى هو المورفيم ، نفسه تعبير عن الباب ، فكأن الباب احد معانى الصيغة غير المباشرة · ومعنى هذا الكلام اننا اذا اخذنا « فاعل » فسنجد كل ما على مثالها داخلا فى باب الفعل الماضى الذى يدل على المشاركة ، (نقول غالبا اضرازا من « سافر ») ، فالصيغة هنا دلت على النسبة الى قسم من اقسام الكلام ، **وهذه ميزة من ميزات اللغة العربية ايضا** (التاكيد من عندى) ·

واعتماد هذه الدلالة هى ما يسميه علماء اللغة بالتحديد الجراماطبقى (62) ·

وعن طريق **هذه الصيغة التى لا يحتاج تغيير المعنى فيها** يقابلها من فعال الى اكثر من زيادة حركة ، كعلم وعلم ·

أو — زيادة مادة كطالب وطلب

أو — زيادتها كضارب وضرب

أو — نقصان حركة كفرس وفرس

أو — نقصان مادة كثبت وثبات

أو — نقصانهما كنزا ونزوان

أو — نقصان حركة وزيادة مادة كغضبى وغضب

أو — نقص مادة وزيادة حركة ، كحرم وحرمان

أو — زيادتهما مع نقصانهما ، كاستنوق من الناقة ·

أو — تغاير الحركتين كبطر بطرا

أو — نقصان حركة وزيادة اخرى وحرف ، كاضرب من الضرب ·

---

(62) مناهج البحث فى اللغة 175 : 177 ·

أو ـــ نقصان مادة وزيادة اخرى كراضع من الرضاعة ·

أو ـــ نقص مادة بزيادة أخرى وحركة كخاف من الخوف ·

أو ـــ نقصان حركة وحوف وزيادة حرف ، كفاخر من الفخار ·

نقصت الفا وزادت الفا وفتحة (63) ·

عن طريق هذه التغيرات البسيطة أمكن اشتقاق سبعة وخمسين مادة من مادة واحدة هى مادة (الجمل) كما سيرد عند الكلام عن التجريد ، وعن هذا الطريق تكونت هذه المادة اللغوية الضخمة التى تملأ بطون المعاجم ، كما فتح باب القياس لتستمر اللغة فى نموها وازهارها على نفس الاساس على اختلاف الاجيال واختلاف العصور واختلاف الظروف ·

نخرج من هذا بأن الاشتقاق فى أصوله المختلفة ، والصيغة أو الميزان الصرفى فى تقاليبه المتعددة يعكسان، مرونة عقلية واسعة ، ودقة شديدة لملاحظة المناسبات والفروق الحسية والمعنوية التى تقع تحت التصرف ومقدرة على التمييز الدقيق بين درجات هذه الفروق ، وخيالا واسعا يستوعبها جميعا دون قصور أو اعياء ، وارهافا شديدا فى الحس يلمح ما خفى وما دق من الفروق ، والدلالات ، والاشارات ·

(63) انظر المزهر ج 1 ص 348 ـــ 349 ·